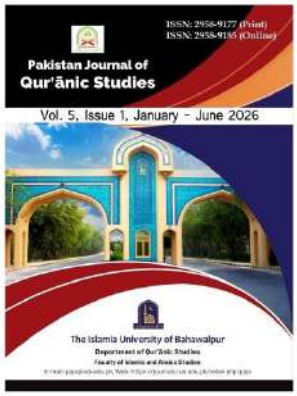

Pakistan Journal of Qur'ānic Studies

ISSN Print: 2958-9177, ISSN Online: 2958-9185
Vol. 5, Issue 1, January – June 2026, Page no. 33-52
HEC: https://hjrs.hec.gov.pk/index.php?r=site%2Fresult&id=1089226#journal_result
Journal homepage: https://journals.iub.edu.pk/index.php/pjqs
Issue: https://journals.iub.edu.pk/index.php/pjqs/issue/view/306
Link: https://journals.iub.edu.pk/index.php/pjqs/article/view/4749
Publisher: Department of Qur'ānic Studies, the Islamia University of Bahawalpur, Pakistan

Title **The Methodological Inseparability of Da'wah and Tarbiyah Issues in the Reformist Project of Sheikh Ashraf Ali Thanwi.**

Author (s): **Khubaib Ahmad**
PhD Scholar, Deptt. of Dawah & Islamic Culture, International Islamic University, Islamabad, khubaib.ryk@gmail.com
Dr. Tahir Saddique
Assistant Professor, Department. of Dawah & Islamic Culture, International Islamic University, Islamabad, tahir.saddique@iiu.edu.pk.

Received on: 15 May, 2026
Accepted on: 22 June, 2026
Published on: 27 June, 2026

Citation: Khubaib Ahmad, and Dr. Tahir Saddique. 2026. " التلازم المنهجي بين القضايا الدعوية والتربوية في المشروع الإصلاحي للشيخ أشرف علي التهانوي: The Methodological Inseparability of Da'wah and Tarbiyah Issues in the Reformist Project of Sheikh Ashraf Ali Thanwi". *Pakistan Journal of Qur'ānic Studies* 5 (1):33-52. https://journals.iub.edu.pk/index.php/pjqs/article/view/4749.

Publisher: The Islamia University of Bahawalpur, Pakistan.

All Rights Reserved © 2024 This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License

التلازم المنهجي بين القضايا الدعوية والتربوية في المشروع الإصلاحي للشيخ أشرف علي التهانوي

The Methodological Inseparability of Da'wah and Tarbiyah Issues in the Reformist Project of Sheikh Ashraf Ali Thanwi

Khubaib Ahmad
PhD Scholar, Deptt. of Dawah & Islamic Culture, International Islamic University, Islamabad, khubaib.ryk@gmail.com
Dr. Tahir Saddique
Assistant Professor, Department. of Dawah & Islamic Culture, International Islamic University, Islamabad, tahir.saddique@iiu.edu.pk.

Abstract
This study investigates the structural integration of Da'wah (Islamic preaching) and Tarbiyah (spiritual upbringing) within Sheikh Ashraf Ali Thanwi's reformist methodology. Challenging the traditional bifurcation of his contributions into separate domains of jurisprudence and Sufism, this research demonstrates that Thanwi viewed outward instruction and inward spiritual cultivation as a singular, cohesive paradigm. Employing a descriptive-analytical approach, the study reveals that Thanwi diagnosed the Muslim community's decline as a compound issue of knowledge deficiency and weak resolve, prescribing academic education and spiritual companionship (Suhbah) as respective remedies. Furthermore, he recalibrated Tazkiyah (purification) as the essence of the Shari'ah, governed strictly by the Qur'an and Sunnah. Emphasizing his pedagogical principles of moderation, facilitation, and the prioritization of interpersonal rights (Huquq al-Ibad), the paper concludes that Thanwi's framework provides a holistic, indispensable model for contemporary Islamic reform.
***Keywords**: Islamic Reform (Islah), Sheikh Ashraf Ali Thanwi, Da'wah and Tarbiyah, Tazkiyah and Sufism, Shari'ah and Tariqah. Islamic Ethics (Akhlaq), Spiritual Companionship.*

المقدمة:

لم تكن مكانةُ الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله قائمةً على كونِه داعيةً مبلِّغاً فحسب، بل كان إلى جانب ذلك مربِّياً مزكِّياً يأخذ بأيدي الناس إلى تطهير بواطنهم؛ فقد كانت له مجلس للتربية (خانقاهٌ) في «تهانه بهون» يَقصِدها طالبو الإصلاح من كل ناحية، وكان له سندٌ في الطريقة تلقّاه عن شيخه الحاج إمداد الله المهاجر المكي. ولذلك لم تكن الدعوةُ في تصوّره عملاً منفصلاً عن التربية، وإنما كانتا عنده عملاً واحداً متلازماً: فهو يدعو الناس إلى الله ويُربّي قلوبهم على الإخلاص وتزكية النفس في وقتٍ واحد.

وعليه تأسست القاعدة التي يدور عليها منهجُه كلُّه، وهي أن الداعية لا يَصلُح لمقام الدعوة حتى تَصلُح سريرتُه، وأن الموعظة ليست استعراضاً للبيان وإنما هي طبٌّ للقلوب. وعلى هذا الأساس يتناول هذا البحثُ منهجَه الدعويَّ والتربويَّ معاً، باعتبارهما وجهين لحقيقةٍ واحدة في مشروعه الإصلاحي، ويسعى إلى إبراز هذا التلازُم العضويّ بين البناء الخارجيّ للدعوة والبناء الداخليّ للتربية في فكر الشيخ وتطبيقه العملي، من خلال استقراء أقواله ونصوصه وما كتبه عنه أعلامُ العلماء.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على الاستقراء والتحليل؛ فتَعرِض نصوصَ الشيخ وأقوالَه في الدعوة والتربية كما وردت، ثم تُحلّلها لتستخرج منها القاعدةَ الجامعةَ التي تربط بينهما. والحاجةُ إلى هذا البيان قائمةٌ؛ لأن كثيراً ممن كتب عن الشيخ أفرد جانبَ الدعوة أو جانبَ التصوف والتربية كلًّا على حِدة، فجاءت صورتُه مجزّأةً لا تُظهِر وحدةَ مشروعه. ومن ثَمّ يقوم هذا البحثُ على أن فهم منهج الشيخ لا يستقيم إلا بالنظر إلى الدعوة والتربية بوصفهما كلًّا واحداً، وأن كلَّ معلمٍ من معالم منهجه إنما هو تطبيقٌ لهذه الوحدة وثمرةٌ من ثمارها.

المفهومُ الجامعُ للدعوة عند الشيخ:

لا تقتصر الدعوةُ في فكر الشيخ التهانوي على التبليغ المجرّد للأحكام، بل هي عمليةٌ مركّبةٌ تَجمع الإرشادَ والتعليمَ إلى التربية والتزكية؛ فهي المهمةُ التي ورِثها العلماءُ الربانيون عن الأنبياء بوصفهم ورثَتَهم حقًّا، وغايتُها إصلاحُ الأمة والأخذُ بها إلى الصراط المستقيم وإخراجُها من شرور النفس إلى معاليها. ولهذا اتخذ الشيخ من قول الله تعالى ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ شعاراً مركزياً لمشروعه، وهو ما يكشف أن تعريفه للدعوة ليس نظرياً مجرّداً، بل وظيفيٌّ مرتبطٌ بهدفٍ عملي هو الإصلاحُ الشامل.

ويبتني هذا المفهومُ الجامعُ على تصوّرٍ للدين نفسِه يأبى حصرَه في شعيرةٍ دون أخرى؛ فالدينُ عند الشيخ بِنيةٌ كليّةٌ مركّبةٌ من أصولٍ متعدّدةٍ لا يقوم بعضُها مقامَ بعض، يقول رحمه الله:

«إنّ الدين في حقيقته اسمٌ لمجموعةٍ من الأمور، وهي خمسةٌ: العقائدُ، والعباداتُ، والمعاملاتُ، وآدابُ المعاشرة، والأخلاقُ الباطنة».[1]

ومتى كانت الأخلاقُ الباطنةُ — من تطهير القلب وتثبيت الإخلاص والتواضع — ركناً من أركان الدين الخمسة، لزِم لزوماً منطقياً أن تكون التربيةُ الباطنةُ جزءاً أصيلاً من عمل الداعية لا تطوّعاً يأتي بعد فراغه من التبليغ؛ فإن دعوةً تَقتصِر على إصلاح الظاهر تكون قد أهملت ركناً تنبني عليه صحةُ سائر الأركان. وبهذا يصير تلازُمُ الدعوة والتربية نتيجةً ضروريةً لتعريف الدين نفسِه، لا أمراً يُضاف إليه من خارج.

[1] Daʿawāt ʿAbdiyya, Ashrafʿ Alī al-Thānawī, Maktabat al-Thānawī, Karāchī, (Faḍl al-ʿIlm wa al-ʿAmal), vol..5, p 261.

وهذا التحوّلُ في المصطلح من «التبليغ» إلى «الإصلاح» ليس تحوّلاً لفظياً، بل يعكس وعياً عميقاً بأمراض المجتمع وحاجتِه إلى علاجٍ متكامل لا إلى مجرّد تذكير. ومتى صار الإصلاحُ غايةً للدعوة، لزِم أن تدخل التربيةُ في صميمها؛ لأن إصلاح الإنسان لا يتمّ بتلقينه الأحكامَ وحدها، بل بتزكية نفسه وتقويم سلوكه. فالتعريفُ الجامعُ للدعوة عنده هو نفسُه الأصلُ الذي ينبثق منه تلازُمُها مع التربية، إذ يستحيل أن يُصلِح الداعيةُ ظاهرَ الناس وهو يُهمِل بواطنهم.

ويترتّب على هذا المفهوم الجامع أثرٌ منهجيٌّ مهمّ؛ وهو أن الداعية في تصوّر الشيخ يَشغَل موقعَ المعلِّم والطبيب والمربّي في آنٍ واحد: يُعلِّم الجاهلَ، ويُداوي مريضَ القلب، ويأخذ بيد السالك إلى الكمال. ولأجل ذلك لم يكن يَقنَع من المدعوّ بالإقرار النظريّ بالحق، بل يَطلُب أن يَنعكِس ذلك الإقرارُ سلوكاً وخُلُقاً؛ فالعِبرةُ عنده بأثر الدعوة في الباطن لا بمجرّد بلوغها الأسماع. وبهذا يتأسّس التلازُمُ بين الدعوة والتربية على تعريف الدعوة نفسِه، لا بوصفه إضافةً طارئةً عليها.

الإصلاحُ داءٌ مركّبٌ ودواءان متلازمان: قلّةُ العلم وضعفُ الهمّة:

لا يَعرِض الشيخُ التلازُمَ بين الدعوة والتربية بوصفه شعاراً وعظياً، بل يبنيه على تشخيصٍ دقيقٍ لطبيعة الانحطاط الذي عرض للأمة. فهو يَضَع مشروعَه الإصلاحيَّ كلَّه داخل استعارةٍ طبّيةٍ محكمة، لا من باب التزيين البلاغي، بل لأنها تُتيح له أن يَفصِل بين تشخيص الداء أولاً ووصف الدواء ثانياً. يقول رحمه الله:

«اعلم أنّ هذا الانقلابَ مرضٌ روحانيٌّ؛ وكما أنّ للأمراض الجسمانية أسباباً خاصة، ولا يتمّ إصلاحُها ومعالجتُها إلا بإزالة تلك الأسباب بعينها، فكذلك هذا الداء».[2]

وإذا كان الانحطاطُ مرضاً، فإنّ الواجبَ الأول ليس التنديدَ ولا الزجر، بل تحديدَ المنشأ. وهنا يَحصُر الشيخُ أسبابَ الداء في أمرين اثنين لا ثالثَ لهما، فيقرّر بعد التأمل والتتبّع أنّ مردَّ معظم الأسباب إلى:

«أمرين: أحدهما قِلّةُ العلم، أي الجهلُ وعدمُ الدراية؛ والثاني ضعفُ الهمّة، أي نقصُ القصد والإرادة أو فقدانُهما».[3]

ثم يُبيّن الشيخُ بدقّةٍ بالغة كيف يعمل كلٌّ من السببين عملاً مغايراً للآخر، حتى لا يُظَنَّ أنهما اسمان لمسمًّى واحد؛ فالسببُ الأول يَحجُب الحكمَ نفسَه عن المكلَّف فلا يَعلمه، أما الثاني فيُبقي الحكمَ معلوماً لكنه يَشلُّ القدرةَ على الامتثال. يقول رحمه الله:

[2] Iṣlāḥ Inqilāb al-Umma, Ashraf ʿAlī al-Thānawī, Idārat al-Maʿārif, Karāchī, Pākistān, vol. 1, p 19.
[3] Ibid., vol. 1, p 19.

«فبالسبب الأول تبقى الأحكامُ الضروريةُ الواقعيةُ نفسُها خفيّةً على المكلَّف؛ وأمّا بالسبب الثاني فلا يَنتقل إلى العمل مع وجود الخبر والمعرفة به».[4]

وفي هذا التفصيل تأسيسٌ نظريٌّ بالغ الأهمية للتلازم. فلو كان الداءُ واحداً لَكفى دواءٌ واحد؛ لكنّ الشيخ يُثبِت أنّ ثمّة مسافةً قائمةً بين «العلم بالحكم» و«القيام بالحكم»، وأنّ هذه المسافة لا يَقطعها العلمُ بذاته. ومن هنا صار العلاجُ العلميُّ — وهو الدعوةُ والتعليم — لازماً ضرورياً لكنه غيرُ كافٍ، وصار العلاجُ الإراديُّ — وهو التربيةُ وتقويةُ الباطن — مكمِّلاً لا غنى عنه. فبإزاء قلّة العلم وضع الشيخُ منظومةَ التعليم والوعظ والإفتاء والتصنيف، وبإزاء ضعف الهمّة وضع منظومةَ الصحبة والمراقبة وتهذيب النفس.

ويبلُغ هذا الأصلُ ذروتَه حين يربط الشيخُ بركةَ التعليم بعمل المعلِّم نفسِه، فيجعل خلوَّ الداعية من العمل سبباً في انتفاء البركة عن تعليمه، إذ يقول:

«لا تَحصُل البركةُ في التعليم بدون عملٍ أو عزمٍ على العمل».[5]

وهذه العبارةُ وحدها كافيةٌ لإثبات أطروحة التلازم بأكملها؛ فإنّ نقصَ التربية في ذات الداعية يُبطِل أثرَ دعوته في غيره، فلا يصير العالِمُ داعيةً مؤثراً حتى يكون قد رُبِّيَ، ولا تُثمِر التربيةُ حتى تنبنيَ على علم. وبهذا ينقلب التلازمُ من شرطٍ بين عمليتين منفصلتين إلى وحدةٍ في الذات الواحدة، هي مدارُ مشروع الشيخ كلِّه.

التزكيةُ والإحسانُ روحُ الشريعة لا ممارسةً منفصلةً عنها:

من أبرز ما يميّز مشروعَ الشيخ أنه لم يَعُدَّ التزكيةَ والإحسانَ نافلةً روحيةً اختياريةً يُقبِل عليها مَن شاء ويَدَعها مَن شاء، بل جعلهما لُبَّ الدين وروحَ الشريعة؛ فالتصوفُ في جوهره عنده هو التحلّي بالفضائل والتخلّي عن رذائل النفس مع الانقياد التام لأحكام الشرع، إذ يُعنى بحال القلب من إخلاصٍ وخشوعٍ ومحبةٍ كما يُعنى الفقهُ بصحة الأعمال الظاهرة. وقد عبّر الشيخ عن هذا المعنى بقوله:

«إن حقيقة التزكية والتصوّف هي تضحية النفس، وتفادي الأرواح لابتغاء رضوان الله تعالى ونيل رضاه، وما العبادة والطاعة والمجاهدات إلا وسائل لابتغاء وجه الله تعالى، وإن رضا الله سبحانه وتعالى يحصل بالتواضع والانكسار، وإظهار العجز والذل أمامه عزَّ وجلَّ، فالعبد لابد أن يحويه الشعور بالتقصير، وإحساس عدم الإيفاء بالعهد، مع القيام بأداء كل الواجبات والفرائض».[6]

وانطلاقاً من هذا التأصيل ردَّ الشيخُ على مَن ظنّ التزكيةَ نوعاً من الأوراد والأذواق والأحوال القلبية المنفصلة عن أحكام الشريعة، فبيّن أن هذا فهمٌ فاسدٌ يَفصِل الباطنَ عن الظاهر ويقطع صِلةَ السلوك بالكتاب

[4] Ibid. vol. 1, p 20.
[5] Ibid, vol. 1, p 24.
[6] Ashraf ʿAlī al-Thānawī Ḥakīm al-Umma wa Shaykh Mashāyikh al-ʿAṣr fī al-Hind, Muḥammad Raḥmatullāh al-Nadawī, Bayrūt: Dār al-Qalam, ṭ.1, 2006 CE, p 125.

والسنة، وأن الطريق الصحيح إنما هو اتباعٌ كاملٌ للشرع في كل شعبةٍ من شعب الحياة، يبدأ بإصلاح العقيدة ثم يَنتقل إلى تهذيب الأخلاق وتطهير القلب من أمراضه. يقول رحمه الله:

«لقد أخطأ الناس في فهمهم للتزكية والإحسان والتصوف، ووقعوا فريسة سوء الفهم في هذا الصدد، وزعموا أن التزكية والتصوف اسم لنوع من الأوراد والأشغال الخاصة، والكشف والإلهام، والأذواق والأحوال القلبية، وبالتالي فصلوه عن الدين، وقطعوا صلته بأحكام الشريعة، وسنة النبي الكريم ﷺ، وهذا زعم فاسد، وفهم خاطئ البتة، إنما الطريقة أو التزكية والتصوف اسم لاتباع كامل للشريعة الربانية، واقتفاء أثر الرسول ﷺ في كل شعبة من شعب الحياة، وجميع مجالاتها، وإن الأعمال الباطنة وإصلاح الباطن جزء لا يتجزأ من الشريعة الإسلامية، مثل الأعمال الظاهرة، وأول ما يقوم العبد بإصلاحه في الأعمال الباطنة هو جانب العقائد، فبعد إصلاحها يأتي دور إصلاح الأخلاق والآداب، والتحلي بمحاسن الأخلاق، والاتصاف بأوصاف التواضع، والقناعة، والصبر والشكر، والحب الكامل الله ورسوله ﷺ، وتطهير النفوس والقلوب من الأمراض الشائعة عموماً، والأسقام التي تطرقت إلى الداخل مثل الكبر والحسد والشحناء والبغضاء والحرص والشح وحب المال والجاه».[7]

وبهذا التقريرِ يتّضح أن التزكيةَ عند الشيخ ليست بابًا مستقلًّا يُضاف إلى الدين، بل هي عينُ الدين في تطبيقه الباطن؛ فإذا كانت الدعوةُ تبني الظاهرَ بالأحكام، فإن التربيةَ تبني الباطنَ بالأخلاق، وكلاهما يصدُر عن أصلٍ واحدٍ هو الشريعة. ومن هنا كان من الطبيعيّ أن تتلازم الدعوةُ والتربيةُ في مشروعه، إذ لا يُتصوَّر إصلاحُ أحد الجانبين مع إهمال الآخر.

وثمرةُ هذا التأصيل أن الدعوةَ والتربيةَ تَستويان عنده في الغاية والمصدر؛ فغايتُهما تحقيقُ العبودية لله بصلاح الظاهر والباطن معاً، ومصدرُهما واحدٌ هو الكتاب والسنة. ومن ثَمّ لم يَكن الشيخُ يَرى التزكيةَ ميداناً يَنفرِد به أهلُ الخلوة، بل واجباً يَلزَم كلَّ مسلمٍ بقدر طاقته، كما يَلزَمه إصلاحُ عقيدته وعمله الظاهر. وبذلك ارتفع الحاجزُ الذي يَضعُه بعضُهم بين «علم الظاهر» و«علم الباطن»، وصارا في منهجه علماً واحداً غايتُه إصلاحُ الإنسان كلِّه.

إصلاحُ العقيدة بالقول والقدوة أساسًا للتربية:

يقوم منهجُ الشيخ على أن صلاح العمل فرعٌ عن صلاح العقيدة؛ فلا تستقيم تربيةُ الباطن ما لم تُصحَّح العقيدةُ أولاً، إذ هي الجذرُ الذي تتفرّع عنه الأعمالُ والأخلاق. ومن ثَمَّ جعل تطهيرَ العقيدة من شوائب الشرك والبدع مدخلاً لكل إصلاحٍ تربويٍّ، وأفرد في ذلك مؤلفاتٍ خاصةً مثل «إصلاح الرسوم» و«تعليم الدين» يُحارِب

[7] Ibid. p 126.

بها العاداتِ الجاهليةَ التي تسرّبت إلى المسلمين بطول مخالطتهم لأهل الأهواء، حتى أثّرت في بيوتهم وأفراحهم وأحزانهم.

ولم يقتصر الأمر على إصلاحُه للعقيدة نظريًّا فحسب، بل سار فيه على شِقّين متلازمين: شقٍّ علميٍّ في مؤلفاته ومواعظه، وشقٍّ عمليٍّ في سيرته التي كانت مرآةً صافيةً للتوحيد الخالص لا يَشوبها شركٌ ولا بدعة. وكان يَختار للإنكار العمليِّ أرفقَ الوسائل وأبلغَها أثرًا في النفس؛ فقد رُوي أنه لما أصرّ بعضُ الناس على تقبيل قدمه رغم نهيه، بادر هو إلى تقبيل أقدامهم حتى خَجِلوا وتركوا تلك العادةَ من فورهم، مُدرِكين خطأها بدرسٍ عمليٍّ بليغٍ هو عينُ التربية بالقدوة لا بالقهر والزجر.

ومما سبق يظهر لنا تصحيح العقيدة عنده ليس بابًا منفصلًا عن التربية، بل هو أساسُها الأول؛ فالدعوةُ تُقوِّم المعتقَد، والتربيةُ تَبني على هذا المعتقَد سلوكًا وخُلُقًا، في تتابعٍ عضويٍّ لا انفصام فيه. ومن أخلَّ بإصلاح العقيدة لم يَجِد للتربية أساسًا تَقوم عليه، ومن اكتفى بالعقيدة دون تربيةٍ بقي إصلاحُه ناقصًا لا يَبلُغ القلب.

ضبطُ التربية بميزان الشريعة والجمعُ بين الفقه والتصوف:

لما كانت التربيةُ عند الشيخ جزءاً من الدين، لزِم أن تخضع لضابطٍ يَعصِمها من الانحراف؛ ولذلك جعل الميزانَ الحاكمَ في باب السلوك هو موافقةَ الكتاب والسنة، ورفض أن تكون الكراماتُ أو المكاشفاتُ معياراً للتقرّب أو دليلاً على الولاية. وقد شدّد في هذا الموضع تشديداً بالغاً فقال:

«هذه الكشوف التي يدعيها المتصوفة ليست من قربة الله تعالى في شيء، ولا هي دليل التقرب إلى الله، ولا يشترط لمن يصدر منه هذه الكشوف أن يكون مسلماً عاقلاً، بل يمكن صدورها حتى من غير المسلمين... وليعلم كل واحد أن الميزان الحقيقي والمقياس الأصلي للتفريق بين الحق والباطل، والمقبول والمردود، هو اتباع شريعة الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، فالذي لا يتوفر فيه هذا الميزان والمقياس فإنه ضال فضلاً عن أن يكون ولياً من أولياء الله، أو قدوة وأسوة، ولا عبرة بصدور الكشف منه حتى لو بلغ المئات أو الآلاف».[8]

وعلى هذا الأساس قام مشروعُه على الجمع بين الانضباط الفقهيِّ والعمق الروحيِّ في توليفةٍ واحدة؛ فاستعمل مقولاتِ الفقه في تحليل الأحوال القلبية، ووظّف وسائلَ التربية في غرس التزامٍ عميقٍ بأحكام الشريعة، حتى صار قادراً على مخاطبة العالِم والعامّيِّ على السواء بإسلامٍ متكاملٍ لا يفصل بين ظاهرٍ وباطن. وقد لخّص العلامةُ السيد سليمان الندوي هذه السمةَ فيه بأنه ممّن:

[8] Ashraf ʿAlī al-Thānawī Ḥakīm al-Umma wa Shaykh Mashāyikh al-ʿAṣr fī al-Hind, Muḥammad Raḥmatullāh al-Nadawī, p 125.

«مزج بقلمه بين الفقه والتصوّف بعد صراع شديد دام بينهما قروناً طويلة... ولعب دوراً بارزاً في مجال تحديد الطريقة فطهرها من أرجاس الرسوم، والتقاليد غير الإسلامية، وأخذ بها إلى مكانها اللائق وطريقة السلف الصالح».[9]

وقد كان هذا الضبطُ ثمرةَ نشأةٍ على السنة وكراهيةٍ للبدعة منذ الصغر، كما يصف الباحثُ مُحَمَّد رحمة الله الندوي تكوينَه فيقول:

«وكان الشيخ التهانوي رحمه الله منذ نشأته راغبا إلى إتباع سنة النبي ﷺ، وكريها للبدعة والضلالة، وذلك لأنه ترعرع في بيئة الحق والاعتدال، وتربى بأيادي العلماء الحذاق في الدين والفطن في فهم مقاصد الشريعة والتراث الإسلامي، حتى صار متعودا على السنة ومخالفا للخرافات الضالة والبدعة المظلمة».[10]

ولم يقتصر عملُه على نقد المفاهيم المغلوطة، بل تجاوزه إلى التأصيل الإيجابيّ الذي يُعيد للتصوف صورتَه الصحيحة بوصفه تعبيراً عن الشريعة لا خروجاً عليها، حتى عُدَّ عملُه في هذا الباب تجديداً. يقول الندوي:

«وقد وفق الله تعالى المصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي، فقام بالتمحيص في هذا الباب، ونقح مثل هذه الأخطاء المختلقة، فكان عمله ذلك عملاً تجديدياً في باب التزكية والإحسان... حتى تحقق أن التصوّف ليس إلا تعبيراً عن الشريعة الإسلامية وتفسيراً لها».[11]

وتأسيساً على ذلك ربط التربية بالشريعة لم يكن قيداً يُضعِف أثرَها، بل كان شرطاً يَضمَن سلامتَها؛ فالدعوةُ تحمي العقيدةَ من الخارج، والتربيةُ المنضبطةُ تحمي القلبَ من الداخل، وكلتاهما تستمدّ مشروعيتَها من المصدر نفسِه.

ومن أبرز ما يُجسِّد هذا الضبطَ بالشريعة سعيُه إلى تأصيل السلوك في السنة النبوية نفسِها؛ فلم يَكتفِ بالدعوى النظرية بأن التصوف موافقٌ للشرع، بل أقام على ذلك الدليلَ الحديثيَّ في مصنَّفٍ مفردٍ هو «حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة»، جمع فيه نحواً من ثلاثمائةٍ وثلاثين حديثاً يُثبِت بها أن أبوابَ التصوف الصحيحةَ مأخوذةٌ من هَدْي النبوة لا مُستحدَثةٌ عليه. وبهذا نقَل التربيةَ من دائرة الأذواق والأحوال القلبية إلى دائرة النصّ، فصارت أحكامُها تُطلَب من الكتاب والسنة كما تُطلَب أحكامُ الفقه.

وهذا الربطُ بين الحديث والتصوف ذو دلالةٍ مزدوجة في مشروعه: فهو من جهةٍ يَصون التربيةَ من الانحراف بإخضاعها للنصّ، ومن جهةٍ أخرى يَرفَع عنها تهمةَ مَن عدَّها بدعةً دخيلةً على الدين. فاجتمع له بذلك

[9] Ibid. p 5.
[10] Ibid. p 55.
[11] Ibid. p 238.

تأصيلُ الدعوة إلى التزكية وتأصيلُ التزكية نفسِها، حتى لم يَبقَ بين دعوته إلى إصلاح الباطن وبين أدلة الشريعة فاصلٌ، وصار طلبُ تزكية القلب فرعاً من اتباع السنة لا أمراً موازياً له.

الوسطيةُ والاعتدالُ في الدعوة والتربية:

من السمات الحاكمة لمنهج الشيخ وسطيتُه واعتدالُه في كل شأن؛ فقد جُنِّب الإفراطَ والتفريط في فقهه وتربيته ومواعظه، فلم يكن متعصّبًا لمذهبه يَردُّ ما خالفه، بل يَختار من الأقوال ما يَنهَض عليه الدليل، حتى أخذ في بعض المسائل بقول غير مذهبه تيسيرًا على الناس ومراعاةً لضرورتهم الاجتماعية. يقول الشيخ ظفر أحمد التهانوي واصفًا هذا المنحى:

«يمتاز الشيخ التهانوي بالوسطية والاعتدال واختيار التوسع وعدم التضييق في المسائل الخلافية».[12]

وقد انعكست هذه الوسطيةُ على أخلاقه مع مخالفيه، فلم يَكن يَحمِل في قلبه شيئًا على عالمٍ لاختلافه معه في فرعٍ فقهيٍّ أو مسألةٍ اجتهادية. يصف الشيخ عزيز الحسن مجذوب هذا الخُلُقَ فيه ناقلًا قولَه:

«كان لا يدع الاختلاف فيها – بسبب الاختلاف في الاجتهاد – يتجاوز الحدود الشرعية، وكان دائماً يقول: لم أحمل يوماً شيئاً في قلبي تجاه أي عالم أو صاحب فضل بسبب الاختلاف في الفروع الفقهية والمسائل الاجتهادية».[13]

بل امتدّ هذا الاعتدالُ إلى أسلوب خطابه؛ فكان لا يُثير المسائلَ الخلافيةَ في مواعظه، فإذا عَرَضت تناولها برفقٍ وحكمةٍ دون تشنيعٍ على المخالف، تأسّيًا بهَدْي الأنبياء في القول اللين والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. يقول الشيخ مُحَمَّد تقي العثماني:

«ولم يقتصر الأمر على فيه تزمت فكري أو عصبية مذهبية أو جمود علمي، بل كان واسع النظر، رحب الصدر، مُحباً للوسطية في كل شيء... وكان لا يتعرض في مواعظه للمسائل الخلافية فيما بين المسلمين، إلا إذا جاءت مسألة خلافية في أثناء كلامه، فيشرحها شرحاً وافياً برفق ولطف وحكمة ونصيحة».[14]

وهذه الوسطيةُ ليست موقفًا فقهيًّا فحسب، بل هي منهجٌ تربويٌّ في مخاطبة القلوب؛ إذ تَفتَح للدعوة أبوابَ القبول، وتَصِل المدعوَّ بالحق دون أن تُنفِّره، فتجتمع بذلك سلامةُ المضمون وحُسنُ الأسلوب، ويلتقي البناءُ العلميُّ للدعوة بالبناء الأخلاقيِّ للتربية في خطابٍ واحد.

[12] Tadhkirat al-Ẓafar, ʿAbd al-Shakūr al-Tirmidhī, Maṭbūʿāt Kamāliyya, Fayṣalābād, ṭ.1, 1977 CE, p 172.

[13] Ashraf al-Sawāniḥ, Khwāja ʿAzīz al-Ḥasan Majdhūb, Idārat Taʾlīfāt Ashrafiyya, 1427 AH, vol. 1, p 128.

[14] Muqaddimat Iʿlāʾ al-Sunan, Muḥammad Taqī al-ʿUthmānī, Idārat al-Qurʾān wa al-ʿUlūm al-Islāmiyya, Karāchī, 1418 AH, 14/1.

ولا يَخفى أثرُ هذا الاعتدال في التربية خاصةً؛ فإن المربّيَ إذا غلَّظ على المخالف أو تشدّد في الفروع نفَّر القلوبَ قبل أن يُصلِحها، أما إذا وسِع الناسَ بحلمه وحكمته فتح لهم بابَ الإصلاح من غير عنف. ولذلك كانت وسطيةُ الشيخ وسيلةً تربويةً بقدر ما هي موقفٌ علميّ، تَجمع بين الثبات على الحق والرفق في تبليغه، فلا يُضيّع الحقَّ مداهنةً، ولا يُنفِّر عنه غِلظةً.

التيسيرُ منهجاً تربوياً في الدعوة:

كان التيسيرُ عند الشيخ أصلاً تربوياً ثابتاً لا مجرّدَ ترخّصٍ عارض؛ فقد رأى أن الدين يُسرٌ، وأن أبناء الطبقات والمهن المختلفة يستطيعون القيام بواجباتهم دون حرجٍ ولا عُسر. ومن ثَمَّ كان يَكره التشديدَ والتنفير، ويميل في خطابه إلى الترغيب أكثر من الترهيب مراعاةً لطبائع أهل عصره. يقول رحمه الله:

«قد جربت طباع الناس في هذا العصر، فوجدتهم ينتفعون بما يشوّقهم ويرغبهم أكثر من انتفاعهم بما يُرهبهم ويُخوّفهم، ولذلك أرى من المناسب التركيز على جانب الترغيب والتقليل من جانب الترهيب».[15]

ولم يقف هذا التيسيرُ عند مادة الموعظة، بل امتدّ إلى طريق التزكية نفسِه؛ فقد عمِل الشيخُ على تنقية مسلك السلوك من التعقيدات التي عَلِقت به، وجعله متاحاً للجميع على اختلاف طبقاتهم. وقد أبرز الشيخُ أبو الحسن الندوي هذا الجانبَ التجديديَّ في عمله فقال:

«كان الشيخ التهانوي من أعظم من انتفعت بهم الهند في إصلاح العقيدة، والعمل، والرجوع إلى الله، وإصلاح النفس، وانتفع الناس بكتبه انتفاعاً لم يعرف لعالم آخر في هذا الزمان، وقد شرح الله صدره لتيسير هذه الطريقة — طريقة التزكية والإحسان — وتقريبها، وتنقيح الغايات من الوسائل، واللباب من القشور والزوائد، وبلغ فيها درجة الإمامة والاجتهاد... وتيسيره لكل فرد على حسب طبقته، وأشغاله، وثقافته وعقليته حتى سهل مناله ودنا جناه».[16]

ومن أوضح مظاهر هذا التيسير موقفُه من البيعة؛ فقد رأى أن العبرة بروحها لا بصورتها، وأن المقصود منها هو الاتباعُ والعملُ لا مجرّدُ الانتساب الرسمي، حتى إنه كان يرفض البيعةَ التي لا يَتبعها إصلاح. يقول رحمه الله:

«لا طائل تحت هذا التعلق الفارغ، ولا تحت هذه البيعة الاسمية الرسمية، ولا لزوم لصورة البيعة، الأصل هو روح البيعة، أي الاتباع، ولا حاجة أن يدخل الإنسان في إرادة شيخ... أما أنا فلا أبايع بل أنصح بالعمل».[17]

[15] Sīrat Ashraf, Munshī ʿAbd al-Raḥmān Khān, Idārat Nashr al-Maʿārif, Multān, Pākistān, p 37.
[16] Bayna al-Taṣawwuf wa al-Ḥayāt, ʿAbd al-Bārī al-Nadawī, Maktabat Dār al-Fatḥ, Dimashq, al-Ṭabʿa al-Ūlā, 1383 AH, ṣ.12–13.
[17] Ibid. p 126.

وأكّد أن البيعة في ذاتها لا تُزيل أمراضَ الباطن ما لم يَصحبها سعيٌ وعملٌ على هَدْي المرشد، إذ محلُّ العلاج هو العمل لا مجرّدُ العقد. يقول رحمه الله:

«إنَّ الظنَّ بأن البيعةَ وحدها تُؤثر في إزالة الأمراض الباطنية خطأٌ محضٌ. فالبيعة ليست إلا اسمًا لمجاهدة الاتباع. ثم إن الاتباع ضروري، ومحله العمل، والعمل لا شك أن له خاصية إزالة الأمراض الباطنية».[18]

وبهذا يظهر أن التيسيرَ عنده لم يكن تخفيفاً يُفرغ السلوكَ من مضمونه، بل كان تربيةً تَنقُل المريدَ من الانشغال بالصور والرسوم إلى الانشغال بجوهر العمل وإصلاح القلب؛ فالدعوةُ تُيسِّر الطريقَ إلى الناس، والتربيةُ تَضمَن أن يكون هذا الطريقُ مُثمِراً في بواطنهم.

ويُلاحَظ أن تيسيرَ الشيخ لم يَنفصِل عن انضباطه؛ فهو يُيسِّر في الوسائل والصور دون أن يُفرِّط في المقاصد والحقائق، فيَجمَع بين سَعةِ الرحمة ودِقّةِ الالتزام. وهذا التوازنُ هو ما يَحفَظ للدعوة جاذبيتَها وللتربية صرامتَها معاً؛ فلا تَنقلِب السهولةُ تسيُّباً يُفرِغ الدينَ من مضمونه، ولا يَنقلِب الانضباطُ تعسيراً يُنفِّر الناسَ منه. وبهذا يكون التيسيرُ جسراً بين الدعوة والتربية، يَفتَح القلوبَ للقبول ثم يَسوقُها إلى العمل.

الصحبةُ معمَلُ التربية وقناةُ انتقال الحال:

إذا كانت الدعوةُ هي الإعلانَ والتعليم، فإنّ التربية في منهج الشيخ لا تكتمل بالتعليم وحده، بل تحتاج إلى عنصرٍ ثالثٍ لا غنى عنه هو صحبةُ أهل الله. وهنا يتجلّى عمقُ تصوّره؛ إذ يرى أنّ العلمَ النظريَّ — مهما علا — يبقى قاصراً عن إحداث التحوّل الباطن ما لم يقترن بالمعايشة والمخالطة، لأنّ كثيراً من مقامات القلب كالإخلاص والصبر والخشية لا تُكتسب بالتلقين وإنما تنتقل بالعدوى الروحية من المربّي إلى المتربّي عبر الملازمة. ولذلك جعل الشيخُ الصحبةَ جذراً للدين كلِّه، فقال:

«صحبةُ الصالحين أصلٌ لجميع الدين؛ فإنّ أعظمَ ما تُنال به حقيقةُ الدين وحلاوتُه وقوّتُه إنّما هو صحبةُ الصالحين».[19]

ولا يَجعل الشيخُ الصحبةَ تكميلاً مستحبّاً للعلم، بل يجعلها شرطاً في الانتفاع به على كل مستوى، فيُلزِم بها العالمَ والمتعلّمَ معاً، إذ يقول:

«وأمّا الأمرُ الثالث وهو الصحبة، فإنّه بدونها لا يكفي التعليمُ، لا في درجته العالية ولا في الدنيا؛ ولذلك كان الاهتمامُ بها واجباً على العلماء والطلاب جميعاً».[20]

[18] Anfās ʿĪsā az Ifādāt Ḥakīm al-Umma, Muḥammad ʿĪsā al-Thānawī, Tāj Kambanī, Dehlī, al-Hind, p 28.

[19] Iṣlāḥī Niṣāb, Ashraf ʿAlī al-Thānawī, Dār al-Ishāʿat, Karāchī, Pākistān, 1990 CE, (Ḥayāt al-Muslimīn), p 49.

[20] Daʿawāt ʿAbdiyya, Ashraf ʿAlī al-Thānawī, (Ṭarīq al-Najāt), vol. 5, p 79.

وفي هذا التقرير نقدٌ ضمنيٌّ لتصوّرٍ شائعٍ يَحصُر الدين في تحصيل المعلومات؛ فالدعوةُ تُبلِّغ العلم، والصحبةُ تُحوِّل هذا العلمَ إلى حالٍ وسلوك، ومن غير هذا التحويل تبقى الدعوةُ معرفةً جامدةً لا تُثمِر عملاً. ولأنّ المقصودَ أثرُ المربّي لا شخصُه، فتح الشيخُ لمن تعذّرت عليه الصحبةُ باباً بديلاً يَحفَظ به أثرَ التربية، فأرشده إلى النظر فيما حُفِظ من كلام الصالحين وملفوظاتهم، فيقوم ذلك مقامَ مجالستهم في استنبات الحال في النفس. وبهذا تتّضح الوحدةُ بين الدعوة والتربية في أجلى صورها: علمٌ يُبلَّغ باللسان والقلم، وحالٌ يُستنبَت بالصحبة والمخالطة، ولا يَستغني أحدُهما عن الآخر.

التدرجُ في الإصلاح ومراعاةُ أحوال المدعوين:

كان التدرجُ ركنًا أصيلًا في منهج الشيخ التربوي؛ فلم يَكن يُعالِج أمراضَ النفوس دفعةً واحدةً، بل يبدأ بتشخيصٍ دقيقٍ للأدواء الخُلُقية والتقصيرات الدينية المنتشرة في مجتمعه، ثم يضع لها علاجًا متدرّجًا يقوم على استبدال الأخلاق السيئة بالحسنة لا على مجرّد اقتلاعها؛ لأن نزع الرذيلة دون غرس الفضيلة يُبقي في النفس فراغًا سرعان ما تعود إليه الرذيلة.

واستلهم في هذا التدرّج هَدْيَ السيرة النبوية، إذ رأى أن المرحلة المكية كانت مرحلةَ تعليمٍ وتربيةٍ وتزكيةٍ للأخلاق مهّدت لبناء المجتمع والدولة في المدينة؛ فجعل تزكيةَ الأفراد هي الخطوةَ الأولى الضرورية قبل السعي إلى إصلاحٍ مجتمعيٍّ واسع. ومن ثَمَّ كان إصلاحُه حركةَ بناءٍ هادئةً عميقةً تبدأ من القلب ثم تتدرّج إلى الأسرة فالمجتمع على أساسٍ راسخٍ من الكتاب والسنة، لا ردودَ أفعالٍ متعجّلةً سرعان ما تَخبو.

وراعى في تدرّجه طبائعَ أهل عصره وأحوالَهم؛ فاختار الأسلوبَ الأنفعَ في قلوبهم بناءً على تجربته بهم، وغلّب الترغيبَ لأنه وجده أوقعَ في نفوسهم من الترهيب، وتجنّب إثارةَ ما يُشتِّت الجهودَ من الخلافات. وبهذا يظهر أن التدرّج عنده ليس بطئًا في الإصلاح، بل حكمةٌ في ترتيب أولوياته، تَنقُل المدعوَّ من حالٍ إلى حالٍ دون أن تُثقِله بما لا يُطيق، وهي عينُ التربية التي تُلازِم الدعوةَ وتمنعها من أن تكون تكليفًا فوق الطاقة.

ويتّصل التدرّجُ اتصالاً وثيقاً بنظرته العلاجية للنفس؛ فكما أن الطبيبَ الحاذقَ لا يَصِف الدواءَ الأقوى ابتداءً، كذلك المربّي يَنقُل المدعوَّ في مراتب الإصلاح بحسب طاقته، فيبدأ بالأهمّ ثم بما يليه، ويُثبِّت الفضيلةَ قبل أن يَنتقِل إلى غيرها. وبهذا يَلتقي التدرّجُ مع التيسير والوسطية في أصلٍ واحدٍ هو مراعاةُ حال المدعوّ، وهو أصلٌ تربويٌّ يَسري في دعوة الشيخ كلِّها، ويُفسِّر كثيراً من اختياراته في مادة الموعظة وأسلوبها.

تيسيرُ فهم الدين عبر التأليف والتعليم:

امتدّ تيسيرُ الشيخ من الجانب الروحيّ إلى تيسير طلب العلم نفسِه؛ فقد كان من أكثر علماء عصره تأليفاً حتى تجاوزت مصنّفاتُه الألفَ في مختلف الفنون، وهذه الوفرةُ في الكتب والرسائل التي تُلبّي حاجات المسلمين هي في ذاتها تيسيرٌ للعلم والمعرفة، حتى قيل إنه قام وحده بعمل مجمعٍ علميٍّ كبير. وكان يُقدّر من بين مؤلفاته كتابَه

«حياة المسلمين» تقديراً خاصاً، ويراه عُصارةَ جهوده الإصلاحية، ودستوراً عملياً ميسَّراً يَجمع الأصول الثابتة لحلّ مشكلات الفرد والمجتمع. وقد عبّر عن عنايته بتيسيره فقال:

«لقد تعبت كثيرًا في كتابة (حياة المسلمين)، في اختيار الموضوعات وفي تسهيلها. ولا أثق بأيٍّ من أعمالي، لكن الحمد لله أن هذا العمل قيّمٌ وأملٌ فيه، وهو جديرٌ بالتدريس. وإذا كان طلاب اللغة العربية يستنكفون من قراءتها بالأردية، فلينقلوه إلى العربية».[21]

ولم يكن هذا التيسيرُ غايةً في ذاته، بل وسيلةً تربويةً تُقرّب الدينَ من كل طبقةٍ بحسب حالها؛ ولذلك أولى تعليمَ المرأة عنايةً خاصة، مدركاً أثرَها في تربية الأجيال، فحذّر من تسليمها إلى من يُفسِد دينَها باسم التعليم، فقال:

«يرسل بعض الناس بناتهم إلى المعلمات المنفتحات، المؤمنات بالتقدّمية للحصول على التعليم منهن، ولا شك أن الدراسة أو تحصيل العلم على أمثال هؤلاء المعلمات لا يؤثر على المتعلمات سلبياً فقط، بل هي تغير نظراتهن إلى الدين والثقافة الإسلامية... إنَّ المرأةَ المسلمةَ تُعرف بالحياء، والوقار، ولكنها في زماننا هذا وقعت فريسة الانحطاط الخلقي، والانهيار الديني».[22]

ولأجل ذلك ألّف كتابَه «بهشتي زيور» (حلية أهل الجنة) موسوعةً جامعةً لتعليم النساء، تَجمع مسائلَ الفقه والعقيدة والتصوف إلى ما يَحتجن إليه في شؤون الأسرة والمنزل. يقول الشيخ مُحَمَّد تقي العثماني في وصفه:

«وله أيضاً كتاب (بهشتي زيور) (حلية أهل الجنة) وهو في سبعمئة صفحة تقريباً من القطع الكبير، وقد جمع فيه مسائل جميع أبواب الفقه والعقائد والتصوّف، وصنفه في الأصل لتعليم النساء... وهذا الكتاب وإن كان قصد به إفادة النساء، فقد انتفع به الرجال كثيراً، ولم يجد العلماء عنه غنّى، وترجم إلى عدة لغات محلية».[23]

وبهذا يتجلّى أن التأليفَ والتعليمَ عند الشيخ امتدادٌ لمشروعه التربويّ لا انفصالٌ عنه؛ فالكتابُ الميسَّرُ والموعظةُ المبسّطةُ كلاهما أداةُ تربيةٍ تُوصِل الدينَ إلى القلوب على اختلاف طبقاتها، وتُحوِّل الدعوةَ من خطابٍ نخبويٍّ إلى إصلاحٍ يَشمَل الأسرةَ والمجتمع.

وفي هذا التلازُم بين التأليف والتربية يَظهَر بُعدٌ مؤسّسيٌّ في مشروع الشيخ؛ إذ لم يَكتفِ بأثر مجلسه المباشر، بل أودَع منهجَه التربويَّ في كتبٍ تَبقى بعده وتَصِل إلى مَن لم يَلقَه، فتحوّلت الدعوةُ الفرديةُ إلى تربيةٍ ممتدّةٍ في الزمان والمكان. وبذلك صار الكتابُ عنده امتداداً للخانقاه، والقلمُ امتداداً للموعظة، حتى إن كثيراً ممن لم يُدرِكوا صحبتَه قد تربَّوْا على مؤلفاته كما تربَّى جلساؤه على مجالسه.

---

[21] Malfūẓāt Ḥakīm al-Umma, Ashrafʿ Alī al-Thānawī, Idārat Taʾlīfāt Ashrafiyya, Multān, Pākistān, 2001 CE, vol. 2, p 110.

[22] Ashrafʿ Alī al-Thānawī Ḥakīm al-Umma wa Shaykh Mashāyikh al-ʿAṣr fī al-Hind, Muḥammad Raḥmatullāh al-Nadawī, p 206.

[23] Muqaddimat Kitāb Iʿlāʾ al-Sunan, Muḥammad Taqī al-ʿUthmānī, 12/1.

شموليةُ الإصلاح من الفرد إلى المجتمع:

لم يكن الإصلاحُ عند الشيخ تعدّداً في الموضوعات فحسب، بل كان رؤيةً عضويةً متكاملةً للمجتمع؛ فهو يرى أن فساد العقيدة في الفرد جذرٌ يُثمِر فسادَ المعاملات في المجتمع، ولذلك بدأ علاجَه من الفرد ليحمي الجماعة. ومن هذا المنطلق امتدّ منهجُه ليَشمَل العقائدَ والعباداتِ والمعاملاتِ والأخلاقَ، وتغلغل إلى تفاصيل الحياة اليومية حتى المجال المنزليّ والأسري. وقد وصف الأستاذُ نجم الحسن التهانوي هذا الاستغراقَ في همّ الأمة بقوله:

«لقد جعله الله سبحانه وتعالى (حكيم الأمة) بكل ما تحويه هذه الكلمة من المعاني، فكان التفكير في إصلاح الأمة، ونفخ الروح الإيمانية الجديدة فيها، جزءاً أساساً من حياته الطبيعية... وبالجملة فإن تفقد أحوال الأمة، ومحاولة إصلاحها، كان الغاية المتوخاة من حياته».[24]

وفي هذا الإطار رتّب الشيخُ أولوياتِه ترتيباً تربوياً لافتاً، فقدّم إصلاحَ المعاملة مع الناس وكمالَ الإنسانية على طلب المقامات والكرامات؛ لأن الأول يَحفَظ الخلقَ من الأذى، أما الثاني فلا يَلحَق غيرَه ضررٌ بفواته. يقول رحمه الله:

«إن تعلّم أوصاف الإنسانية واجب أساسي، وتعلّم الولاية ليس بواجب، لأن المرء إذا لم تتحلّ حياته بصفات الإنسانية الكاملة، فإنه قد يتسبب في إيذاء الآخرين، أما الذي لم يتعلّم الولاية، ولم تحصل له درجة الأولياء فإنه لا يضر غيره شيئاً».[25]

وهذه الرؤيةُ للترابط العضويّ بين صلاح الفرد وصلاح المجتمع تكشف أن الشمولية عنده ليست اتساعاً في الموضوعات، بل إدراكٌ دقيقٌ للعلاقة السببية بين الباطن والظاهر؛ فالتربيةُ التي تُصلِح الفردَ هي عينُها التي تُؤسِّس لمجتمعٍ صالح، والدعوةُ التي تُخاطِب المجتمعَ لا تُجدي ما لم تَنفُذ إلى أفراده فرداً فرداً.

ومن لطائف هذا المنهج أنه يَربط بين أخصِّ ما في التربية — وهو إصلاح القلب الواحد — وأعمِّ ما في الدعوة — وهو إصلاح الأمة كلِّها — برباطٍ سببيٍّ واحد؛ فالمجتمعُ الصالحُ في تصوّره ليس إلا حصيلةَ أفرادٍ صَلَحت قلوبُهم، والأمةُ القويةُ ليست إلا ثمرةَ نفوسٍ زَكَت. ولذلك جعل عملَه في الخانقاه — وهو عملٌ تربويٌّ فرديٌّ في ظاهره — مقدّمةً لإصلاحٍ اجتماعيٍّ واسعٍ في غايته، فلم يَكن انكفاؤه على تربية الأفراد انصرافاً عن هموم الأمة، بل كان أوثقَ الطرق إلى إصلاحها.

[24] Ashrafʿ Alī al-Thānawī Ḥakīm al-Umma wa Shaykh Mashāyikh al-ʿAṣr fī al-Hind, Muḥammad Raḥmatullāh al-Nadawī, p 195.

[25] Ḥakīm al-Umma wa Mujaddid al-Milla Ashrafʿ Alī al-Thānawī, Najm al-Ḥasan al-Thānawī, Idārat Taʾlīfāt Ashrafiyya, Thāna Bhawan, al-Hind, p 14.

الأخلاقُ وحقوقُ العباد وإصلاحُ المعاشرة غايةً تربويةً للدعوة:

جعل الشيخُ الأخلاقَ أساسَ الدين وغايتَه لا جزءاً من أجزائه فحسب، مستنداً إلى أن مقصد البعثة النبوية هو إتمامُ مكارم الأخلاق؛ فالعباداتُ كلُّها إنما تَؤول إلى تهذيب النفس وتزكيتها، حتى إن العبادةَ التي لا تُثمِر خُلُقاً تبقى صورةً جوفاء. وقد لاحظ أن كثيراً من المنتسبين إلى السلوك ينشغلون بصورة الذكر عن حقيقته، فبيّن ذلك بقوله:

«يظن الناس بعد ترديدهم لكلمة (الله) مئة ألف مرة أنهم أتوا بالذكر، مع أنهم لم يأتوا بحقيقة الذكر، بل إنما أتوا بصورة الذكر وبأثر من آثاره، لأنهم لو كانوا أتوا بحقيقة الذكر لم تخلُ حياتهم من الأعمال الحسنة الأخرى، بل نجد أن كثيراً من الذين يرددون كلمة (الله) مئة ألف مرة، ولكن لا توجد فيهم الأعمال الأخرى بتاتاً».[26]

ولذلك كان من أبرز ركائز عمله التربويّ حثُّه أتباعَه على أداء الحقوق، وقد غلّب العنايةَ بحقوق العباد لِما رأى من تقصير كثيرٍ من المتعبّدين فيها مع محافظتهم على النوافل. يقول رحمه الله مبيّناً أولوياتِه:

«إني أصرف جلّ عنايتي بأن لا يتأذّى أحد مني، أو من أصحابي، سواء كان ذلك الإيذاء بدنياً كالضرب والنزاع، أو مالياً كغصب الحقوق وأكل الأموال بالباطل، أو ما يتعلق بعرض الإنسان كإهانة رجل واغتيابه، أو نفسياً... وإني أهتم بهذه الأشياء أكثر من اهتمامي بغيرها... وأما إذا رأيت أحداً لا يبالي بأداء هذه الحقوق، فإنه يحزنني حزناً شديداً».[27]

وفي السياق نفسِه نبّه إلى خطأ مَن أخرج المعاشرةَ من دائرة الدين وحصَر الأحكامَ في العبادات المحضة، مؤكداً أن الشريعة قانونٌ شاملٌ يتناول السلوكَ والمعاملةَ والمأكلَ والمشربَ، فقال:

«لقد أزال الناس المعاشرة من قائمة الدين. يعتقدون أن الأحكام الشرعية تقتصر فقط على هذه الأمور المعدودة من الصلاة والصيام والحج والزكاة وذكر الله... واعلموا أنكم لم تُتركوا أحرارًا قط. بل تناولت الشريعة سلوكنا وأقوالنا، وجلوسنا وقيامنا، ومعاملاتنا، ومأكلنا ومشربنا، وكل شيء. الشريعة قانون شامل».[28]

بل قدّم حُسنَ المعاشرة على المعاملات المالية في سُلّم أولوياته التربوية؛ لأن في المعاملات حفظَ المال، وفي المعاشرة حفظَ القلوب والأعراض، ومنزلتُهما أرفعُ من منزلة المال. يقول رحمه الله:

«إن الاهتمام بحسن المعاشرة أهم من الاهتمام بالمعاملات؛ لأن في إصلاح المعاملات حماية لأموال غالبية الناس، أما في حسن المعاشرة فتُصان قلوب المسلمين، ومن البديهي أن منزلة القلب أعلى من المال. فإلى جانب إصلاح المعاشرة، تُصان أعراض الناس مع قلوبهم، وحفظ العرض أهم من كل شيء بعد الإيمان».[29]

[26] Ashraf ʿAlī al-Thānawī Ḥakīm al-Umma wa Shaykh Mashāyikh al-ʿAṣr fī al-Hind, Muḥammad Raḥmatullāh al-Nadawī, p 154–155.
[27] Ashraf al-Sawāniḥ, Khwāja ʿAzīz al-Ḥasan Majdhūb, vol.1, p 179.
[28] Malfūẓāt Ḥakīm al-Umma, Ashraf ʿAlī al-Thānawī, vol. 4, p 185.

وغايةُ هذا كلِّه عنده تطهيرُ القلب من أمراضه الباطنة؛ إذ صلاحُ الظاهر وأفعالِه موقوفٌ على صلاح الباطن، حتى إن لذّة الحياة نفسَها مرهونةٌ بسلامة القلب. يقول رحمه الله:

«ينصبُّ التركيز الأكبر بين الصوفيين على تنظيف وتطهير القلب والباطن ونقائهما. بل إنَّ اسم التصوف بحدِّ ذاته يُشير تحديدًا إلى تطهير وتزكية القلب والباطن. فمن ذا الذي يمكن أن تكون حياته الدنيوية أطيب وألذ وأنقى من حياة الصوفي؟ فإذا كان القلبُ مريضًا لا لذةَ فيه، فلا لذةَ في صحةِ الجسد ولا في الطعام والشراب».[30]

وبهذا الترتيب يَنكشِف منطقُ الأولويات عند الشيخ: فالعبادةُ غايتُها الخُلُق، والخُلُقُ مظهرُه حسنُ المعاشرة وأداءُ حقوق العباد، وأصلُه كلُّه طهارةُ القلب. فالدعوةُ التي تَقِف عند الشعائر دون أن تُثمِر هذا كلَّه دعوةٌ ناقصة، والتربيةُ التي لا تَنتهي إلى إصلاح المعاملة مع الخلق تربيةٌ معطّلة. ومن هنا كانت العنايةُ بالأخلاق وحقوق العباد ثمرةً عمليةً للتلازم بين الدعوة والتربية، إذ تُترجِم الإصلاحَ الباطنَ إلى سلوكٍ ظاهرٍ يَنتفِع به المجتمعُ كلُّه.

البُعدُ التربوي في الخطاب الدعوي — الإخلاصُ شرطاً والموعظةُ طبّاً للقلوب:

لا يكتمل تلازُمُ الدعوة والتربية عند الشيخ إلا في شخص الداعية نفسِه؛ فقد اشترط فيه قبل مباشرة الدعوة أن يَستكمل أركاناً باطنةً يقوم عليها القبولُ والأثر، وعلى رأسها الإخلاصُ وتجريدُ النية لله وحده، بحيث لا يلتفت إلى نتائج الدعوة الظاهرة ولا إلى ما تجلبه من جاهٍ أو شهرة. يقول رحمه الله محذّراً من تعليق العمل على ثمرةٍ نفسيةٍ عاجلة:

«إن بعض الناس يمارسون الذكر والأشغال، ثم يغتمون لعدم حصول حالة خاصة أو ثمرة معينة، ظانّينَ — لسوءِ فهمهم — أنها هي الغاية المقصودة، ويقولون: لم يحصل لنا شيء. إن هؤلاء واقعون في خطأ جسيم؛ إذ إن المقصود الحقيقي هو مرضاة الحق (جل وعلا)، والسبيل إليها هو الذكر والطاعة. فمن نال ذلك، فقد نال كل شيء».[31]

ويربط الشيخُ بين فساد الإخلاص وطلبِ الشهرة، فيجعل تجريدَ القصد لله علاجاً لِآفة حبِّ الظهور التي تُفسِد على الداعية عملَه، إذ يقول مخاطباً نفسَ الداعية:

«أتسعى للشهرة؟ إن المقصد الأصلي هو إرضاء الله تعالى، وذاك هو ما ينبغي تحصيله. فلتفعل كل ما تفعله، مبتغيًا بذلك رضوان الحق».[32]

---

[29] Khuṭbāt Ḥakīm al-Umma, Ashrafʿ Alī al-Thānawī, Idārat Taʾlīfāt Ashrafiyya, Multān, (al-ʿAbd al-Rabbānī), vol. 4, p 120.

[30] Tajdīd Taṣawwuf wa Sulūk, ʿAbd al-Bārī al-Nadawī, al-Maktaba al-Ashrafiyya, Lāhawr, p 288.

[31] Daʿawāt ʿAbdiyya, Ashrafʿ Alī al-Thānawī, (Muhimmāt al-Duʿāʾ), j.1/ṣ.49.

[32] Khuṭbāt Ḥakīm al-Umma, Ashrafʿ Alī al-Thānawī, Idārat Taʾlīfāt Ashrafiyya, Multān, Pākistān, 1430 AH, (al-Itmām li-Niʿmat al-Islām), vol..12, p 122.

ولا يَقِف أثرُ صلاح الداعية عند القبول النفسيّ فحسب، بل يَجعله الشيخُ مادّةَ التأثير نفسَها ومورِدَ النور الذي به تَنفُذ الكلمةُ في القلوب؛ فأثرُ القول في المخاطَب موقوفٌ على عمل القائل، يقول رحمه الله:

«للطاعة درجتان: إحداهما ذات نورانيّة قويّة، والأخرى ذات نورانيّة ضعيفة. ومن أسباب قوّة هذه النورانيّة أنّ القيام بطاعة ما يكون سبباً في زيادة نور طاعة أخرى، ممّا يُؤَدّي إلى تقوية نورانيّتها. ومثل ذلك كمثل مصباح يكون ضوؤه خافتاً، فإذا أُوقِدَ مصباح آخر إلى جانبه، ازداد ضوء المصباح الأول ونورانيّته. وهذا هو الشأن في الطاعات تماماً؛ حيث تقوم إحدى الطاعتين بزيادة نور الطاعة الأخرى وتقويته... وعلى هذا المنوال، فإنّ نور هذه الطاعة – أي الدعوة إلى الله – يزداد قوّةً بانضمام الطاعة الأخرى إليها، وهي العمل الصالح».[33]

بل يَرفَع الشيخُ هذا المعنى من مستوى التأثير النفسيّ إلى مستوى الحقيقة، فيُقرّر أنّ للطاعة نوراً، وأنّ نورَ الدعوة بوصفها طاعةً يَشتدّ بانضمام العمل الصالح إليها، فيقول:

«وكذلك نورُ هذه الطاعة — أي الدعوة إلى الله — يَقوى بطاعةٍ أخرى، وهي العملُ الصالح».[34]

ومن هنا كان الخُلُقُ الحسنُ والقدوةُ العمليةُ عند الشيخ أبلغَ من الحُجّة في استمالة القلوب؛ فالكلمةُ قد تُقابَل بالمكابرة، أما السيرةُ الصالحةُ فحجّةٌ صامتةٌ لا يَجِد المخالفُ إلى ردّها سبيلاً، يقول رحمه الله:

«إنّما انتشر الإسلامُ بالأخلاق؛ فلو صِرنا مسلمين صادقين كاملين على هذا النحو، لأخذ غيرُ المسلمين يَدخُلون في الإسلام لمجرّد النظر إلينا».[35]

وبهذا يصير الخُلُقُ جسراً بين التربية والدعوة: فهو ثمرةُ تزكيةٍ باطنةٍ من جهة، وهو أبلغُ وسائل البلاغ من جهةٍ أخرى، فلا يَنفكّ أحدُهما عن الآخر في بناء الشيخ الإصلاحي.

وكما اشترط في الداعية صلاحَ الباطن، رسَم للموعظة منهجاً تربوياً علاجياً؛ فنظر إليها نظرتَه إلى الدواء، وإلى الواعظ نظرتَه إلى الطبيب الذي يُشخِّص الداءَ أولاً ثم يصف العلاجَ الموافق، ولا يُلقي الكلامَ جزافاً دون مراعاة حال السامع. يقول رحمه الله:

«الوعظ في الحقيقة علاج للأمراض الروحية، أي أن حاصله تشخيص الأمراض الروحية ثم بيان علاجها. وقد بيّنت ذلك ليعلم السامعون ما النية التي ينبغي لهم استحضارها عند استماع الوعظ».[36]

ومن تمام هذا التصوّر العلاجيّ أن جعل غايةَ الموعظة أن يُنزِّل السامعُ ما يَسمعه على حاله هو، لا أن يتلقّاه عرضاً معرفياً عاماً يَمُرُّ به دون أثر؛ فالموعظةُ مرآةٌ يَضعها الواعظُ بين يدي المدعوِّ ليُبصِر داءَه قبل أن يطّلع على دوائه. يقول رحمه الله:

---

[33] Khuṭbāt Ḥakīm al-Umma, Ashrafʿ Alī al-Thānawī, (al-Daʿwa ilā Allāh), vol. 13, p 27.
[34] Ibid., vol. 13, p 26.
[35] Khuṭbāt Ḥakīm al-Umma, Ashrafʿ Alī al-Thānawī, (al-Ṣalāḥ wa al-Iṣlāḥ), vol. 4, p 439.
[36] Daʿawāt ʿAbdiyya, Ashrafʿ Alī al-Thānawī, (Takmīl al-Islām), vol..3, p .291.

«ما الغرض الأساسي للوعظ؟ أي أن يطبق المرء كل ما يُبيَّن فيه على حالته».[37]

وعلى ضوء ما سبق البُعد التربويَّ يَسري في معالم منهج الشيخ الدعويّ كلِّها: في شرط الإخلاص الذي يُصحِّح باطنَ الداعية، وفي تشخيص الموعظة الذي يُراعي باطنَ المدعوِّ، وفي علاج أمراض القلوب الذي يقوم على التدرّج والاستبدال لا على مجرّد الزجر. فالدعوةُ تُخاطِب العقلَ والسلوكَ الظاهر، والتربيةُ تَنفُذ إلى القلب لتُصلِح منبعَ السلوك، وكلتاهما تجري في مجرى واحد.

وعلى هذا، فإن البُعد التربويَّ ليس فصلاً مستقلًّا يُختَم به البحثُ، بل هو الخيطُ الناظمُ الذي يَسري في المباحث السابقة جميعِها؛ فما تقدّم من تأصيل التزكية وضبطها بالشريعة، ومن الوسطية والتيسير والتدرّج، ومن العناية بالأخلاق وحقوق العباد، إنما هو تفصيلٌ لحقيقةٍ واحدة: أن الشيخ كان يُربّي وهو يَدعو، ويَدعو وهو يُربّي؛ فلا تُدرَك دعوتُه بمعزلٍ عن تربيته، ولا تُفهَم تربيتُه بمعزلٍ عن دعوته.

الموازنةُ الدقيقة: إصلاحُ النفس وإصلاحُ الغير معاً:

يَحرِص الشيخُ على ألّا يَنقلِب تأكيدُه لتلازُم الدعوة والتربية إلى ذريعةٍ يُعطَّل بها أحدُ الواجبين بحجة الآخر؛ فلا يُؤجَّل الاحتسابُ بدعوى عدم اكتمال الصلاح الشخصي، إذ يرى أنّ هذا التأجيلَ حيلةٌ نفسيةٌ تُفضي إلى تعطيل الفريضتين معاً. ولذلك يُقرّر منهجيةً متوازيةً تَدمج المسارين في حركةٍ واحدة، فيقول:

«والحاصلُ: داوِمْ على إصلاح نفسك وإصلاح غيرك معاً، جنباً إلى جنب».[38]

ومن دقّة موازنته أنّ اشتراطَه العملَ في كمال الدعوة لا يَعني إسقاطَ وجوبها عند نقص العمل، فيُنبّه صراحةً إلى خطأ من يَترُك الوعظ بحجة قصوره في العمل، إذ يقول:

«ولا يُفهَمنّ من هذا أنّه إن لم يكن عملٌ فلا يَعِظ أصلاً، كما يَقَع في هذا الخطأ كثيرٌ من الناس».[39]

ثم يَجمع الشيخُ أطرافَ المسألة في خلاصةٍ جامعةٍ تَرُدُّ الدعوةَ والعملَ والتواضعَ إلى نسقٍ واحد، فيقول:

«فالخلاصةُ: أن تقترن الدعوةُ إلى الله بالعمل الصالح وبالتواضع والانكسار جميعاً».[40]

وبهذا الضبطِ الثلاثيّ يَنأى الشيخُ بمنهجه عن إفراطين: إفراطِ مَن يجعل الدعوةَ فعلاً ظاهرياً منبتّاً عن إصلاح النفس، وإفراطِ مَن يجعل نقصَ النفس عذراً في تعطيل الدعوة. فمن تَرَك الدعوةَ بحجة ضعف عمله فقد أساء، ومن دعا بلا عملٍ فقد أضعف أثرَه، ومن جَمَعهما ثم زاحمه العُجبُ فقد أفسدهما معاً؛ ولا يَستقيم الأمرُ إلا باجتماع الدعوة والعمل والتواضع في حركةٍ واحدة هي عينُ التلازم بين الدعوة والتربية.

---

[37] Ibid. vol. 3, p 292.
[38] Khuṭbāt Ḥakīm al-Umma, Ashrafʿ Alī al-Thānawī, (al-Itmām li-Niʿmat al-Islām), vol. 12, p 103.
[39] Khuṭbāt Ḥakīm al-Umma, Ashrafʿ Alī al-Thānawī, (al-Daʿwa ilā Allāh), vol. 13, p 28.
[40] Ibid., vol. 13, p 59.

.

الخاتمة:

يتّضح مما تقدّم أنّ الدعوة والتربية في مشروع الشيخ أشرف علي التهانوي الإصلاحي أصلٌ واحدٌ لا ينفكّ أحدُ شطريه عن الآخر؛ فمن نظر إلى دعوته مجرّدةً عن بُعدها التربويّ لم يُحِط بها على وجهها الصحيح. ويمكن إجمالُ أهمّ ما انتهى إليه البحثُ في النقاط الآتية:

- عرّف الشيخُ الدعوةَ تعريفاً جامعاً يدخل فيه الإرشادُ والتعليمُ والتربيةُ والتزكية، وجعل الإصلاحَ يبدأ من القلب.
- أصّل التزكيةَ بوصفها روحَ الشريعة، وربطها بالكتاب والسنة ربطاً محكماً يَعصِمها من الانحراف.
- سلك في إصلاحه مسلكَ الوسطية والتدرّج، ويسّر طريقَ السلوك والعلم للناس على اختلاف طبقاتهم.
- قدّم الأخلاقَ وحقوقَ العباد وحسنَ المعاشرة على كثيرٍ من النوافل، وجعلها ثمرةً عمليةً للإصلاح الباطن.
- اشترط في الداعية صلاحَ سريرته، وجعل عملَه الصالح مادّةَ التأثير ومصدرَ نورانية دعوته.
- جعل الموعظةَ طبّاً للقلوب لا استعراضاً للبيان، يُشخَّص فيها الداءُ ثم يوصَف له الدواء.
- وازن بين الواجبين موازنةً دقيقة، فلم يجعل نقصَ العمل عذراً في ترك الدعوة، ولا الدعوةَ منبتّةً عن إصلاح النفس.
- خلَص إلى أنّ منهجه يقوم على وحدةٍ بنائيةٍ بين الدعوة والتربية، فلا يُفصَل العلمُ عن العمل، ولا الظاهرُ عن الباطن، ولا الدعوةُ عن التربية.

وفي هذا التلازُم درسٌ بليغٌ لكلّ عملٍ دعويّ معاصرٍ يَبتغي الأثرَ الباقي لا الانتشارَ العابر؛ إذ يُوصي الباحثَ والداعيةَ على السواء بأن يُعيدوا النظرَ في الفصل الشائع بين التبليغ والتربية، وأن يَستلهموا من تجربة الشيخ أنموذجاً يَجعل إصلاحَ الباطن غايةَ الخطاب لا زينةً تُضاف إليه.

المراجع:

1- دعوات عبدية، أشرف علي التهانوي، مكتبة التهانوي، كراتشي، (فضل العلم والعمل).

2- إصلاح انقلاب الأمة، أشرف علي التهانوي، إدارة المعارف، كراتشي، باكستان.

3- أشرف على التهانوي حكيم الأمة وشيخ مشايخ العصر في الهند، مُحَمَّد رحمة الله الندوي، بيروت: دار القلم، ط١، ٢٠٠٦م.

4- أشرف علي التهانوي حكيم الأمة وشيخ مشايخ العصر في الهند، مُحَمَّد رحمة الله الندوي.

5- تذكرة الظفر، عبد الشكور الترمذي، مطبوعات كمالية، فيصل آباد، ط ١، ١٩٧٧م.

6- أشرف السوانح، خواجة عزيز الحسن مجذوب، إدارة تأليفات أشرفية، ١٤٢٧هـ.

7- مقدمة إعلاء السنن، مُحَمَّد تقي العثماني، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، ١٤١٨هـ.

8- سيرة أشرف، منشي عبد الرحمن خان، إدارة نشر المعارف، ملتان، باكستان.

9- بين التصوّف والحياة، عبد الباري الندوي، مكتبة دار الفتح، دمشق، الطبعة الاولى، 1383هـ.
10- أنفاس عيسى از إفادات حكيم الأمة، مُحَمَّد عيسى التهانوي، تاج كمبني، دهلي، الهند.
11- إصلاحي نصاب، أشرف علي التهانوي، دار الاشاعت، كراتشي، باكستان، 1990م، (حياة المسلمين).
12- دعوات عبدية، أشرف علي التهانوي، (طريق النجاة).
13- ملفوظات حكيم الأمة، أشرف علي التهانوي، إدارة تأليفات أشرفية، ملتان، باكستان، ٢٠٠١م.
14- أشرف علي التهانوي حكيم الأمة وشيخ مشايخ العصر في الهند، مُحَمَّد رحمة الله الندوي.
15- أشرف علي التهانوي حكيم الأمة وشيخ مشايخ العصر في الهند، مُحَمَّد رحمة الله الندوي، ص ١٩٥.
16- حكيم الأمة ومجدّد الملة أشرف علي التهانوي، نجم الحسن التهانوي، إدارة تأليفات أشرفية، تهانه بهون، الهند.
17- أشرف علي التهانوي حكيم الأمة وشيخ مشايخ العصر في الهند، مُحَمَّد رحمة الله الندوي.
18- خطبات حكيم الأمة، أشرف علي التهانوي، إدارة تأليفات أشرفية، ملتان (العبد الرباني).
19- تجديد تصوف وسلوك، عبد الباري الندوي، المكتبة الأشرفية، لاهور.
20- خطبات حكيم الأمة، أشرف علي التهانوي، إدارة تأليفات أشرفية، ملتان، باكستان، ١٤٣٠هـ، (الإتمام لنعمة الإسلام).